ترجمات | Translations

القِبْلَةُ: علم ديني؟ أم دين علمي؟

Qiblah: a religious science? Or a scientific religion?

مونيكا ريوس[١] | Mónica Ruis

تقديم وترجمة:

الحسن أسويق [٢] | El Hassan Assouik

(١) يندرج هذا العمل في إطار الأهداف التي رسمها الفريق المتضامن للبحث "فريق ميّاس فاليكروسا لتاريخ العلم العربي"، والمشروع البحثي: "العلم والمجتمع في الضفة الغربية للبحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط المتأخر" الممول من طرف : MCTE (HUM2004)-02511/FILO-031252.

(٢) أستاذ الفلسفة بالكلية متعددة التخصصات بالناظور (جامعة محمد الأول - وجدة). البريد الإلكتروني: elhassanssouik@gmail.com

تقديم المترجم:

إلى حدود أواسط القرن التاسع الميلادي لم تتوفر للمسلمين المعارفُ الفلكية الرياضية الدقيقة التي تمكنهم من تنصيب قبلة المساجد بدقة. ولأن معرفة القبلة أمر مهم وشرط ضروري إلى جانب أربعة أمور شرعية تكليفية أخرى بالنسبة للمسلمين المكلفين: الصلاة والطواف ودفن الأموات وذبح الأنعام (مع تجنب استقبالها بالبول والغائط كما جاء في الحديث النبوي)، فقد كانوا قبل هذا التاريخ يعتمدون في ذلك على طرق فلكية شعبية موروثة -في أغلبها- عن فترة ما قبل الإسلام؛ إذ كانت العلامات التي تُعرف بها القبلة تتجلى -أساساً- في ملاحظة النجوم الثابتة ومطالع الشمس ومغاربها في الاعتداليين أو الانقلابين، أو مطالع بعض النجوم الهادية أو غروبها (كسهيل أو قلب العقرب)، أو اتجاه الرياح، ثم مطالع القمر.

لكن نشأة علم الفلك الرياضي لم يفض رأساً إلى تصويب جهة المساجد المنحرفة عن القبلة، أو اعتماد نموذج علمي موحد لتعيين القبلات على الصواب. وإذا كان العالم الإسلامي قد شهد، ابتداء من أواخر القرن التاسع الميلادي، ظاهرة تغيير محاريب العديد المساجد، فإن ذلك لم يكن لاعتبارات علمية

محضة، وبحسب ما يُقرّه علماء التوقيت العارفين بدلائل القبلة؛ بل لاعتبارات تتعلق بصراعات سياسية ومذهبية بين السلالات الحاكمة تُترجم في صيغة الرغبة في مُخالفة قبلة العدو. ولعل تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة -زمن الرسول- كان خطوة رمزية للتعبير عن الرغبة في مخالفة قبلة اليهود.

ومن الأمور التي وقع فيها الخلاف بين الفقهاء استقبال القبلة؛ ففي الوقت الذي نجد فيه أن العديد من الفقهاء اعتبروا أن استقبال عين الكعبة فرض على سائر المكلفين لصحة الصلاة، سواء بالنسبة للبعيدين أو للقريبين منها، اعتبارا لتأويلهم لقوله تعالى: "وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره"، فإننا نجد -في المقابل- قلة من الفقهاء يقولون إن استقبال الجهة يكفي. ومن جهة أخرى، نجد تياراً غالباً من المتصوفة قد قللوا من شأن التوجه إلى القبلة ومن الجزاءات التي قد تترتب عن ذلك، بحيث إنهم يقبلون استقبال أي جهة مصداقاً لقوله تعالى: "ولله المشرق والمغرب فأينما تُوَلّوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم". ومن هنا كانت نشأة ما سماه أحد الباحثين "مفارقة الكعبة"[٣].

ولأن استقبال القبلة من فرائض الدين، فقد اعتبر الفقهاء أنفسهم معنيين أكثر من غيرهم بالحديث فيها؛ لذلك تجد المقلدين والتقليديين منهم، يعترضون على الطرق الهندسية التي يستدل بها علماء الفلك الرياضي على معرفة جهة القبلة وسمتها. وقد يبدو من خلال هذا القول أن الفقهاء هم الذين كانوا مكلفين بنصب قبلات المساجد وغيرها من المباني؛ لكن العديد من الوقائع والأحداث التاريخية تبيّن أن كلمة الفقهاء -كما العلماء- لم تكن دائماً مسموعة.

في هذا المقال الذي هو عبارة عن ملخص لأطروحتها لنيل شهادة الدكتوراه تحت عنوان: **القبلة في الأندلس والمغرب الأقصى**، التي ناقشتها بجامعة برشلونة عام ٢٠٠٠ حيث تعمل كأستاذة في قسم الدراسات العربية، تسلط الباحثة الإسبانية مونيكا ريوس بينييس **MÒNICA RIUS PINIÉS** الضوء على الخلافات التي وقعت في الأندلس والمغرب الأقصى بين الفقهاء والعلماء حول تنصيب القبلة، مستحضرة في ذلك مختلف وجهات النظر: الدينية - الفقهية، والفلكية، والجغرافية، والأركيولوجية، والإسطوغرافية، محاولة الكشف عمّا تنطوي عليه هذه العملية من أسرار وألغاز، بل و"أبعاد ضخمة".

نص المقال:

١ - مقدمة

تعني اللفظة العربية "القبلة" لغةً: الشطر، وهو الناحية والجهة، لكن في السياق الإسلامي لا يمكن ذكر القبلة إلا من حيث كونها

(3) Michel Chodkiewicz, « Le paradoxe de la Ka'ba », Revue de l'histoire des religions [En ligne], 4 | 2005, mis en ligne le 15 janvier 2010, consulté le 19 avril 2019. URL : http://journals.openedition.org/rhr/4223 ; DOI : 10.4000/rhr.4223

الكعبة[٤] {المشرّفة}: أي البيت الحرام بمكة {المكرمة}. إنها " الجهة " بامتياز. استقبالها أثناء أداء الصلوات أو في لحظات رمزية أخرى كما هو الأمر في حالة الذبح والنحر أو قضاء الحاجة الطبيعية أو دفن ميت، أمر يقتضيه النص القرآني هذا ليس بالأمر الجديد مقارنة بالأديان الأخرى؛ إذ كان على المسيحيين أيضاً التوجه نحو القدس (وبعد ذلك نحو روما)[٥]. الفرق يكمن في أن هذه الممارسة في العالم الإسلامي ما زالت قائمة وسارية المفعول؛ بل إنها -أكثر من ذلك- تشكل عنصراً أساسياً من المنظومة الرمزية لهذا العالم. لمكة معنى مزدوج: إنها تمثل مركزاً روحياً من جهة، ونواة جغرافية تُعد بمثابة المركز الفعلي - المادي للعالم[٦] من جهة أخرى؛ يتوجه المسلمون روحياً نحو مكة أثناء أدائهم لصلواتهم، كما يتوجهون نحوها أيضاً جسدياً عند أدائهم لفريضة تعتبر ركناً آخر من أركان الدين ألا وهي فريضة الحج.

إن موضوعاً مثل هذا موضوع من الشساعة بحيث يستدعي مقاربات تحليلية عدة. ومن المؤكد أننا أمام موضوع لا يمكن أن يُحاط به إلا باستدعاء مختلف وجهات النظر: الدينية منها، والفقهية، والفلكية، والجغرافية، والأركيولوجية، والإسطوغرافية[٧].

٢ - الإطار الجغرافي والزمني

من المؤكد أن واجب تنصيب المساجد أمر أَهَمّ ويهمّ المسلمين في جميع الأزمنة؛ لكن هذا التحليل، الذي سنقدمه، سوف يقتصر أساساً على مساجد الأندلس والمغرب الأقصى.

فيما يخص الإطار الكرونولوجي {الزمني}، نجد أن المؤلفين الذين سنفحص مؤلفاتهم يغطون مرحلة تمتد لستة قرون: من القرن الثاني عشر الميلادي إلى القرن الثامن عشر الميلادي. تجدر الإشارة إلى أن المؤلفين المتأخرين اقتصروا في الغالب الأعم على تكرار ما قال به أسلافهم. يبدو في الواقع أن درجة الانحطاط أخذت منحى تصاعدياً مع توالي القرون بحيث نجد أن **الفاسي** (ت.١١٣٤هـ/١٧٢٢م) -على سبيل المثال- يعاني -ليس فقط من عجز مطلق في الإتيان بالجديد-؛ بل إنه ينهض كدليل على المستوى العلمي والثقافي المتدني في بلاد المغارب في القرن الثامن عشر الميلادي.

(٤) { يقول ابن خلدون: "وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب ويُقال لها أيضاً بكة قال الأصمعي لأن الناس يبك بعضهم بعضاً إليها أي يدفع وقال مجاهد باء بكة أبدلوها ميماً كما قالوا لازب ولازم لقرب المخرجين وقال النخعي بالباء البيت وبالميم البلد وقال الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم". ابن خلدون، المقدمة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨، ص. ٢٨٠}.

(٥) في الواقع جميع الديانات تشمل عملياً "مسألة الجهة"، سواء تعلق الأمر بالبنيان أو بالأوثان.

(٦) مفهوم مكة كعنصر يفيد المركز، نجده قد انتقل إلى عدة لغات؛ إذ أصبح من المألوف القول -على سبيل المثال- "هوليوود هو مكة السينما". من ناحية أخرى، يعتقد البعض أنه إذا ألقينا نظرة عن كوكب الأرض من مركبة فضائية، سنلاحظ أن الكعبة تبث "طاقة" نحو الفضاء الخارجي. {يقول ابن الأجدابي: "وآفاق الأرض محيطة بمكة، شرفها الله تعالى، من جميع هذه الجهات. فمنها المُشرّق عنها، ومنها المُغرّب، ومنها المُحاذي لها من جهة الشمال، ومنها المُحاذي لها من جهة الجنوب"، أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن الأجدابي، كتاب الأزمنة والأنواء، حققه عزت حسن، المملكة المغربية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص. ١١١}

(٧) أنظر: مونيكا ريوس، القبلة في الأندلس والمغرب الأقصى، برشلونة، ٢٠٠٠.

٣ - الدين

لماذا كان الفقهاء هم المعنيون أكثر من غيرهم بالكلام في القبلة؟ الجواب بالضبط هو أن واجب التوجه إلى القبلة فريضة من الفرائض الدينية؛ إذ نجد أن في القرآن -فعلاً- ما يثبت ذلك، كما في الآية التي تقول: "ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام"[٨]. مصداقاً لهذه الآية اتفق العلماء على أن "المسجد الحرام" هو الكعبة بمكة {المكرمة}. لكننا نجد في نفس النص المقدس، بالرغم من ذلك، آية أخرى تقول: " لله المشرق والمغرب. فأينما تُولّوا فثمة وجه الله".[٩] والتي فُسرت بمعنى جواز استقبال أي جهة عند أداء الصلاة. هذا يعني أنه بالرغم من التنصيص -كما يبدو- على وجوب التوجه إلى القبلة فثمة سؤال يطرح نفسه، وهو: إلى أي حد يكون التوجه إلى عين الكعبة فرضاً واجباً؟ إنه السؤال الذي خلق عدة خلافات لم تحسم بعد داخل المجتمع الإسلامي.

لقد كان الفقهاء في القرون الوسطى يميزون قبل كل شيء، بين نوعين من الصلاة: صلاة أولئك الذين يؤدون صلواتهم بمكة نفسها، وصلاة من يوجدون بعيدين عنها. بالرغم من أن هذا التمييز قد يبدو بسيطاً، فإنه تمييز يساعد على تحديد درجة الدقة التي يمكن أن يلتزم بها هؤلاء أو أولئك. بالنسبة للأولين -الذين يمكنهم رؤية بناية الكعبة عينياً- تُطلب منهم دقة مطلقة. وبالنسبة لباقي المسلمين -أي بالنسبة لما يفوق تسعة وتسعين بالمائة- فالمطلوب منهم هو الاجتهاد في طلبها، وذلك بحكم الآية: "وما جعل عليكم في الدين من حرج"[١٠].

إلى جانب القرآن نقف على استشهادات من الحديث الذي يشكل المصدر الثاني للشريعة. والحديث الأكثر ذكراً فيما نحن بصدده هو: " ما بين المشرق والمغرب قبلة". هذه العبارة التي يتبيّن منها أن الجهة الجنوبية هي الجهة الصحيحة، علماً أن هذا الحديث ينتمي للمرحلة المدنية. لكن المشكلة ستظهر في الوقت الذي حمل فيه بعض الفقهاء هذا الحديث على العموم، وقالوا بصلاحيته في أي مكان في العالم. وكما هو معلوم، فإن النصوص التي تناقش صلاحية هذا الحديث من عدم صلاحيته لكافة المسلمين متوافرة. وفي هذا الإطار نجد بعض الفقهاء يؤكدون على أن التقليد لا يمكن أن يتناقض مع النص القرآني، لكن دون أن ينالوا الرضا والقبول من طرف الجميع فيما سعوا إلى تأكيده.

٤ - علم الميقات والرسائل حول القبلة

ألّف الفقهاء في فترة الإسلام الوسيط عدداً هائلاً من الكتب في موضوع الميقات؛ هذه الكتب كانت تحظى بمتابعة واسعة من طرف الجمهور لاحتوائها على فتاوى وتعليمات

(٨) **Corán II, 145**، **{ البقرة، ١٤٩}**، نعتمد {تقول م. ريوس} في هذا العمل الترجمة التي أنجزها **خوان فيرنيت** للقرآن:. Vernet, Plaza & Janés, ١٩٨٠

(٩) Corán II, 109 ، {البقرة: ١١٥}

(١٠) Corán XX,78 ، {الحج، ٧٨}.

تتعلق بأداء الواجبات الدينية اليومية. إن العلم المعروف بعلم الميقات هو العلم الذي يسعف في قياس الوقت عن طريق الشمس والنجوم. هدفه الرئيسي قياس أوقات الصلاة بطرق غير الطرق التقنية، كما يهتم أيضاً بجوانب أخرى كتحديد مشاهدة ومراقبة الهلال -أو كما سبقت الإشارة حساب القبلة-. أدوات الحساب هذه يمكن العثور عليها -تحديداً- في ما يسمى بكتب المواقيت، كما في التقاويم وكتب الفقه. وفي كل الحالات، فإن المعرفة بالفلك الشعبي ببلاد المغارب كانت ضحلة إلى حدود ذلك الوقت.

ظهر في القرن العاشر للميلاد بالمشرق الإسلامي متخصصون في علم الميقات، يسمّوْن: الموّقّتون. في مصر -على سبيل المثال- نجد **ابن شمعون** (ت.١٢٨٤)، و**محمد الوائلي** (ت. ١٣٠١)، بينما نجد في سوريا **ابن الشاطر** (ت. ١٣٧٥). لقد كان هؤلاء -عادة- مرتبطين بأحد المساجد (مسجد عمرو بالقاهرة، ومسجد الأمويين بدمشق)، ولهم كتب في هذا الموضوع.

كما ظهر أيضاً شخص الميقاتي، أي المختص الذي ليست له علاقة مباشرة بمسجد من المساجد. في القرن السادس عشر الميلادي، ذكر **التاجوري** عدة أسماء لعدة ميقاتيين مصريين ك**محمد المنيد** و**محمد ابن عبد الله ومحمد بن أحمد السنهوري الميقاتي**.

في الغرب الإسلامي لم تُنجز بعدُ دراسة شاملة كما لم يتم دراسة العديد من النصوص المتوفرة. رغم ذلك فإنه مع تقدم الأبحاث يتم التعرف على أسماء جديدة للمتخصصين في علم الميقات.

إذا توجهنا نحو الأندلس سنجد أن الحال -إلى حد ما- مختلفة. حتى وإنْ كنا لا نعرف عمّا إذا كان فعلاً يشتغل بالمواقيت: لا بد من أن نذكر **أبأ علي الحسن بن علي بن خلف الأموي القرطبي**[11] المعروف **بالخطيب** (ت. ٦٠٢-١٢٠٥)، الذي كان يعيش في إشبيلية خلال فترة الموحدين. كتابه الأساسي هو: **كتاب الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب لابن عاصم** (ت.٥٤٠٣- ١٠١٣م)؛ المخطوط الموجود بمكتبة الأسكوريال رقم ٩٤١ والذي يحمل عنواناً مختصراً هو: كتاب الأنواء. لكن كاتبين عاشا في القرن الرابع عشر الميلادي هما **أبو علي المصمودي** و**علي المؤدب** يذكران العنوان الكامل لكتاب القرطبي : **المستوعب الكافي والمقنع الشافي في معرفة الكواكب والأنواء وما لا يستغني عنه أهل الديانات من معرفة أجزاء الليل وأوقات الصلوات.** فعلاً، إن **رينو**[12] قد عثر أيضاً على مخطوطين ل**أبي علي الحسن القرطبي**، بعنوان مختلف نسبياً هو **المستوعب الكافي والمقنع الشافي فيما يصلح بالطالب المعيد والرجل المريد.**

(١١) ميكيل فوركادا، " كتب الأنواء في الأندلس"، التراث العلمي الأندلسي، مدريد، ١٩٩٢، ص.ص. ١١١-١١٢.

(12) H.P.J. Rénaud, "Un prétendu catalogue de la bibliothèque de la grande mosquée de Fès, daté de 1268 Hég. / 1851-1852 J.-C.", Hésperis 18 (1934), pp. 93-94

مائة سنة بعد ذلك في غرناطة النصرية نجد عائلة من الموّقتين، هي عائلة **ابن باصّه**: **حسين بن محمد بن باصّه** (ت. ١٣١٦م) وابنه **أحمد بن حسين بن باصّه** (ت. ١٣١٠م) كانا مؤقتين بالمسجد الجامع للمدينة، وقد صنعوا أدوات وألفوا رسائل في الموضوع[١٣].

نجد خلال المرحلة النصرية أيضاً اسما آخر هو **أبو الحسن علي بن موسى بن عبيد الله اللخمي** المعروف ب**القرباقي** (ت. ٨٤٣هـ-١٤٤٠م). كان مّوقتاً من المرجح أنه كان يشتغل بمدينة بسطة، وهو الذي تزعم مناظرة طويلة مع **أبي القاسم ابن سراج**: إمام ومفتي قرطبة (ت. ٨٤٧هـ-١٤٤٤م)، حول القبلة بالأندلس. لقد كان **القرباقي** من أنصار الاجتهاد في استعمال علم النجوم من أجل التوصل إلى نتيجة أكثر دقّة. من المفيد الإشارة إلى أن هذه المناظرة قد نقلها اثنين من المغاربة: هما: **الونشريسي** (القرن الخامس عشر الميلادي) و**محمود الفاسي** (القرن الثامن عشر الميلادي).

لقد وجدنا في الأندلس -إذن- متخصصاً في القرن الحادي عشر الميلادي وعن آخر بعد قرنين. لذلك كان يجب انتظار المرحلة النصرية التي تمثل مرحلة أكثر تقدماً.

إجمالاً: فإنه بالنظر إلى الحاجة إلى تفسير النصوص لأداء الفروض اليومية، نشأ علم جديد هو علم الميقات الذي كانت له أدبياته الخاصة. كما نشأ أيضاً علم فرعي أكثر تخصيصاً، هو المتعلق بالرسائل المخصوصة حول الجهة الشرعية، والتي تتضمن إرشادات بسيطة تهم في تعيين جهة المساجد.

من جهة أخرى، من المهم تحليل المواقف المختلفة التي أبانت عنها مختلف الفرق الإسلامية بخصوص الواجبات التعبدية؛ ففي الوقت الذي طور فيه الشيعة الحسابات عن طريق الجداول، فإن الاتجاه السني اعتمد المنهجية القائمة على طرق الملاحظة[١٤].

يقوم أصحاب التصانيف حول القبلة في البداية بتضمين رسائلهم نظرة عامة للآراء التي قيلت حول الموضوع في البيئة الجغرافية الأقرب إليهم، ثم يقومون بعد ذلك بتقديم مجموعة من النصائح (هي -عموماً- عبارة عن مؤشرات فلكية) من أجل تحديد الجهة تحديداً دقيقاً. بخصوص بلاد المغارب، كان بالإمكان التوصل إلى تأسيس مدرسة للفقهاء المغاربة التي كان أبرز أعضائها **المتّيجي** (القرن ١١م)، و**المصمودي** (القرن ١٣م)، و**التاجوري** (القرن ١٦م)، علماً أن هذا الأخير كان مقيماً بمصر. ورغم المسافة الزمانية والمكانية التي تفصل بين أعضائها يمكن الحديث عن مدرسة بحكم أنهم رسموا خطاً لانتقال المعرفة انطلقت مع مؤسس معروف واستمرت مع أتباعه.

تفيد الإشارة إلى أن هناك فرقاً مهماً بين

(١٣) ابن باصّه، رسالة الصفيحة الجامعة لجميع العروض: دراسة، تحقيق وترجمة: إ.كالفو، المصادر العربية الإسبانية،١٣، مدريد، ١٩٩٣.

(١٤) ما نزال نجد هذا الغموض على صفحات الويب العالمية التي تقدم مؤشرات تقريبية حول حساب القبلة

الأدوات التي تم الاحتفاظ بها في بلاد المغارب وتلك التي تم الاحتفاظ بها في الأندلس. ففي حين نجد في المكتبات المغربية رسائل كثيرة حول القبلة لم أعثر - إلى حد الآن- عن كتاب من تحرير مؤلف أندلسي. هذه الحقيقة تحدد إلى حد كبير شروط البحث والمعطيات التي نتحصل عليها الآن من أجل دراسة كيف فهم سكان الأندلس واجب بناء مساجدهم. ولتجاوز هذه الحال -ولو جزئياً- لا بد من الاستعانة بالنصوص التي يمكن أن نستخرج منها أيضاً معلومات وأخبارا، كالنصوص التشريعية والرسائل الخاصة بالآلات، والمؤلفات الجغرافية، والمصادر التاريخية والرسائل الخاصة بالميقات.

كما سبقت الإشارة إلى ذلك: نجد في مصر اسم شخص على درجة كبيرة من الأهمية هو **أبو زيد عبد الرحمن بن الحاج أحمد المغربي الطرابلسي**، المعروف ب**التاجوري** (ت. حوالي ٩٦٠/ ١٥٥٣م). ولد بتاجور قرب طرابلس - بشمال أفريقيا-، درس الرياضيات والفلك مع **البرموني المشارطي**. كان فقيهاً مالكياً ومؤقتاً كبيراً بالقاهرة -حيث كان يقيم-. لكن اهتمامه -في المقام الأول- كان دائماً هو تنصيب قبلة المساجد ببلاد المغارب. وقد ألف في هذا الإطار عدداً كبيراً من المؤلفات -أغلبها غير منشور إلى حد الآن-، بعض هذه المؤلفات خاص بالآلات الفلكية، لكن اهتمامه كان منصباً -أساساً- على القبلة. من ثمار هذا الاهتمام نجد كتباً مثل: **كتاب دلائل قبلة أهل المغرب و كتاب تنبيه الغافلين عن قبلة الصحابة والتابعين**. وبالرغم من أنه أهدى كتبه إلى **تقي الدين أبي البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحي** (٩٧٢/٥٦٤م) كبير قضاة المدرسة الحنبلية بالقاهرة، إلا أن المعنيين في الأخير بأعماله الخاصة بالقبلة هم سلاطين المغرب الأقصى.

لقد كان الجزء الأكبر من اهتماماته، في الحقيقة، متجهاً نحو مدينة فاس؛ المدينة التي كانت الأكثر أهمية خلال مرحلتي المرينيين والوطاسيين.

أسلوب **التاجوري** عموماً أسلوب جِدّ بسيط شبيه بأسلوب محرري كتب الرسائل حول القبلة الذين كان همهم تفهيم السواد الأعظم من الجمهور. درس الأعمال الأكثر أهمية لفقهاء مصر والفلكيين والمؤقتين، **كشهاب الدين القرافي** (٦٨٤/١٢٨٥م) و**سبط المرديني** (ت. ٨٥٣/٥٢٣٨م) و**ابن رشد** (ت. ٥٥٢٠/ ١١٢٦م) و**ابن عربي** (ت.٥٥٤٣/١١٤٨م)، كما درس **ابن البنّاء** (ت. ٧٢١/٥٧٢١م) الذي فضّله عن كل الآخرين. كما أن ما يميز **التاجوري** هو اطلاعه الواسع على الواقع المغاربي ومعرفته به، مما يؤكد تمكنه الكبير من الأدبيات حول القبلة التي تم تأليفها ببلاد المغارب، وهذا ما يظهر عندما يستشهد ببعض المؤلفين الذين لم يكونوا معروفين في القرن ١٢م، **كأبي علي المتيجي** و**ابن النحوي التوزري** و**أبي سعيد الهسكوري** أو **موسى بن وركون الهسكوري**.

قام الفقيه -صاحبنا هذا- بجمع آراء علماء الفلك المصريين (الذين كان جلهم مؤقتين) في فتوى منطوقها أن الحديث: " ما بين المشرق والمغرب قبلة" حديث مخصوص بأهل المدينة دون سواهم، ومن ثمة، فإن الأخذ به في بلاد المغارب خطأ. ينبغي أن يقال إنه يمكن القول إن هذه الفتوى تتضمن رأي علماء مختلف المذاهب الفقهية: أي المذهب المالكي والمذهب الحنبلي والمذهب الشافعي والمذهب الحنفي، كما جرت عادة استعمالها في مصر منذ عهد المماليك، بالرغم من أن المذهب الأخير كان هو المذهب الرسمي طوال المرحلة العثمانية.

كان رأي **التاجوري** أن مساجد فاس مختلفة المباني ومتباينة الجهات، ومن ثمة: وَجَبَ تصويب قبلاتها. في مقابل ذلك، نجد أهل فاس يؤكدون على أن مسجد القرويين -الذي بني (في القرن ٩م) من قِبَل **إدريس بن عبد الله بن حسن بن علي**- -ولأنه سليل عائلة الرسول **محمد** (ﷺ)- فإن المسجد الذي بناه لا يمكن -في جميع الحالات- أن لا يكون قد بُني على الصواب. ويتحجج **التاجوري** على ذلك بأن الخطأ سببه التقدير غير السليم ليس ل**إدريس** بل لمجموعة من العلماء المقلدين (تقليد مسجد الأندلسيين). وحسب **التاجوري** نفسه، فإن بعض البنايات اللاحقة تم تنصيب قبلاتها بشكل أفضل؛ لأن ذلك تم اعتماداً على الحسابات الرياضية (قواعد الهندسة)؛ لكنه في جميع الحالات فإن المشكلة الرئيسية هي تباين جهات المساجد بنفس المدينة.

إن التعرض بالنقد لقبلة مسجد القرويين، يعني التعرض بالنقد للمركز المحوري للمشروعية الدينية في بلاد المغارب، ومن ثمة لمشروعيتها السياسية. وبهذا المعنى سيتم الإضرار بسمعة المدارس، التي كانت بمثابة مراكز للدعاية الدينية والسياسية. هذا -ربما- ما يفسر لماذا كان الحديث يجري باستمرار على قبلة فاس، في الوقت الذي لم يكن فيه **التاجوري** يعير أي اهتمام لمساجد المنطقة التي كان يعيش فيها، مثل تلك الموجودة بطرابلس وتونس أو الجزائر العاصمة.

اعتبر **التاجوري** أن المساجد ببلاد المغارب لا ينبغي هدمها، بل يجب إغلاق محاريبها واستبدالها بأخرى جديدة[١٥]. وكان يكرر باستمرار أنه من الضروري الاحتذاء بمسجد الصحابة والتابعين الذين بنوا مسجد **عمرو بن العاص** في الفسطاط (إلى مطلع قلب العقرب)، أو مسجد القيروان (إلى مشرق الشمس الشتوية). ولهذا السبب يجب أن تكون القبلة، في المغرب الأقصى، إلى الشرق، وهي الجهة

(١٥) { يذكر محمد حجي في كتابه: الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين، الجزء الأول، ص.ص. ٢٩٠. ٢٩٦. أن "من بين الذين اهتموا بمسألة انحراف القبلة في فاس عالم ليبي هاجر إلى المشرق متنقلاً بين مصر والحجاز وبلاد الأناضول يدعى عبد الرحمن بن محمد التاجوري". كما يذكر بالرسالة التي بعث بها حوالي عام ٩٥٥- ١٥٤٨ إلى أمير فاس أحمد الوطاسي يشرح فيها خطأ توجه المصلين في المغرب إلى الجنوب ما دامت مكة تقع منه في جهة الشرق، معتمداً على أدلة عقلية ونقلية، ومصرحاً بأن ذلك منكر يجب تغييره." و"هي الرسالة التي رد عليها الفقيهان محمد اليسيتني وعبد الوهاب الزقاق. وتعقيباً عليهما ألف التاجوري كتاب: تنبيه الغافلين عن قبلة الصحابة والتابعين"، الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين، الجزء الأول، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٦، ص.ص. ٢٩٠. ٢٩٦}.

المثبتة من طرف علامات فلكية مثل برج التوأمين أو مطلع الشمس في الاعتدال. في المقابل، يمكن أن نجد في القاهرة محاريب تم تصويبها. السلطان المملوكي الملك **الأشرف قائد باي** (١٤٦٨- ٩٦)، على سبيل المثال، قام بتغيير اتجاه القبلة عندما رمّم - في ١٤٨٠م- قبة **الشافعي** (التي بنيت ما بين ١١٧٦م و ١١٨٠م من طرف صلاح الدين الأيوبي). إلى جانب ذلك، فإن عدة محاريب تم تصويبها زمن **عبد الملك الظاهر برقوق** (١٣٨٢ -٩٩).

١,٤. الجهة في مقابل السمت

عادة ما تركز الرسائل الخاصة بالقبلة على نقطة أساسية: هي الفرق بين الجهة والسمت. إن التحليل الصائب لهذه المسألة يقتضي تحديد ما هو المطلوب بالفعل، وما هي الواجبات الملموسة التي يقتضيها أمر التوجه إلى القبلة أثناء أداء الصلاة. ثمة -على العموم- إجماع على أن المصلي ملزم باستقبال الجهة. ماذا تعني إذن هذه المفردة؟

الجهة تعني "ناحية"؛ لكن بمدلولات تختلف جداً عن القبلة. إن الجهة هي "الجهة عموماً" التي في سياق الحديث عن القبلة نقيض لفظة السمت التي تدل على "الجهة الدقيقة" {عين القبلة}. يمكن أن يختلف تعريف الجهة من مؤلف لآخر؛ بحيث كانت تعني بالنسبة للبعض زاوية الرؤية (٩٠ درجة)، بينما تعني عند البعض الآخر القوس بزاوية ١٨٠ درجة. وقد تم الاستناد في ذلك على فكرة أن السمت يوجد في مركز هذه الزاوية نفسها، وأن هناك ٤٥ درجة (أو ٩٠ درجة) من الهامش على اليمين واليسار انطلاقاً من نقطة المركز.

لا يمكن إذن تعميم فكرة أن المساجد "لم تصوّب إلى جهاتها على الصواب" في الوقت الذي كان يبدو فيه أن الرأي الأكثر شيوعاً هو أن ما كان ضرورياً هو استقبال الجهة فقط.

من جهة أخرى، لم يكن الجميع يسمح بالانحراف عن القبلة، لكن كان هناك مؤيدون لاستقبال عين القبلة دائماً أثناء أداء الصلوات. كانت نسبة مهمة من هؤلاء علماء فلك، لكن كان هناك -إلى جانبهم أيضاً- بعض الفقهاء. لا يجب أن ننسى كذلك أن بعض العلماء رفضوا تطبيق الحسابات الرياضية لاستقبال القبلة، لأنهم كانوا واعين بأن البيانات الأساسية لم تكن في المتناول؛ إذ إنه بدون معرفة دقيقة بالإحداثيات الجغرافية (المشكوك فيها، خاصة في حالة خطوط الطول) كان من المستحيل الحصول على نتيجة دقيقة.

٢,٤. التقليد في مقابل الاجتهاد

كان ثمة عنصر آخر شكل مصدر انقسام داخل جماعة الفقهاء. إن للشريعة الإسلامية، كما هو معلوم، أدوات تساعد على تطبيق الأحكام الفقهية، والتقليد الحرفي للقدماء - يُعدّ واحداً من هذه الأدوات. من الطبيعي أن يتم الاقتداء بشخص يعتبر نموذجياً. المشكلة تبرز إلى السطح عندما نكتشف أن هذا الشخص

قد ارتكب خطأ ما. وهذا هو حال الصحابة، أي صحابة الرسول {ﷺ}. كيف يمكن الشك في الجهات التي رسموها للمساجد؟ سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار دورهم الأساسي في تبليغ القرآن والحديث. بخصوص هذه النازلة، اعتاد الفقهاء تبني موقف تبريري حاصله أنه لم تكن للصحابة أداة أخرى لمعرفة الجهة غير معرفتهم بقبة السماء، لذلك فإنهم بذلوا أقصى الجهود الممكنة.

ظهر إلى الواجهة جدل جديد، وتم حله من خلال التأكيد -في النهاية- على أن ما يهم هو النية وليس النتيجة. لقد بذل السلف الصالح قصارى الجهود، ولذلك لم يكن من الممكن مطالبتهم بالمزيد. لكن ماذا لو أتيحت الفرصة لأحد المسلمين للقيام بأفضل من ذلك، أي تحديد الاتجاه بدقة؟. لذلك اتفق معظم الفقهاء حول ما يلي: إذا استطاع أن يقنع مواطنيه فلا بأس، أما إذا كانت صرامته من شأنها زرع الفتنة داخل صفوف الأمة، فإن عليه العدول عن هذه الطريق، بحيث إن النجاح في استقبال القبلة أمر ثانوي بالقياس لأشياء أساسية من قبيل وحدة الأمة، ووحدة جماعة المؤمنين.

٥. علم الفلك

من جهة أخرى، فإن علم الفلك واحد من العلوم التي عرفت تطوراً مهماً في الأندلس، ربما نتيجة للأهمية التي أولاها الحكام لعلم التنجيم. بدأ علم الفلك الأندلسي في التطور تحت إمارة عبد الرحمن الثاني (٨٢١م-٨٥٢م)، الذي أدخل إلى الأندلس الجداول الفلكية، وكتب الفلسفة، والموسيقى، والطب، وعلم الفلك. إلى حدود القرن الحادي عشر الميلادي، كان علم الفلك الأندلسي كاستمرار للتقليد اللاتينو - قوطي الذي، من المحتمل، كان يتعايش مع بعض المعارف - ذات العلاقة بالميقات - عند العرب الذين دخلوا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية. بالموازاة مع علم الفلك العلمي، ظهرت إلى الوجود فلك شعبي كان يحاول تحديد اتجاه القبلة بالاستعانة بالطرق التقليدية التي كما تم توثيقها في كتب الأنواء على سبيل المثال. هكذا تعايش نمطان من الأدبيات الفلكية ذات العلاقة باتجاه القبلة: رسائل علم الفلك الرياضي ورسائل علم الفلك الشعبي. فيما يخص النمط الأول: لم يكن هناك سوى عدد قليل من علماء الفلك (من **ابن السمح**[١٦] إلى **ابن البنّاء**[١٧]) الذين لم يتناولوا في لحظة أو أخرى من مسيرتهم، مسألة تنصيب القبلة.

إن مسألة القبلة إذن لم يتم تناولها من طرف الفقهاء فقط؛ بل كانت موضوعاً لنظرعلماء الفلك. وكما رأينا ذلك فإن صحابة الرسول كانوا هم المسئولين عن بناء -ومن ثمَّ تنصيب- المساجد الأولى، لذلك لم يكن من الممكن اعتماد الحسابات الرياضية الدقيقة في تنصيب جهة هذه المباني؛ لأن هذه الحسابات لم تتطور إلا بحلول القرن التاسع الميلادي.

(١٦) ابن السمح، كتاب العمل بالأسطرلاب، ترجمة ودراسة م. فيلادريتش، برشلونة، ١٩٨٦.

(١٧) خوان فرني، مساهمة في دراسة العمل الفلكي لابن البناء، تطوان، ١٩٥١.

كان على المسلمين الأوائل اعتماد طرق موروثة عن الثقافة الـ(ما قبل إسلامية)، وهذا الجانب لا بد من أخذه بعين الاعتبار.

لقد كان البدو الذين يتشكل منهم المجتمع الإسلامي البدائي أفراداً صحراويين، في إطار جغرافي جد خاص، وفي ظروف مناخية جد محددة، وأغلب الأنشطة لا يمكن أن تنجز إلا في العشيّ، خاصة فيما يهم الرحلات. وعليه فإن معرفتهم بالسماء والنجوم الهادية كانت دقيقة جداً. هذه الحكمة تم الأخذ بها كما هو مذكور في عدة آيات من القرآن. على سبيل المثال الآية التي تقول: "وعلامات وبالنجم هم يهتدون"[١٨] وآية: "وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر"[١٩].

١,٥. علم الفلك الرياضي

الحلّ النهائي "لمشكلة القبلة" كان مع حساب المثلثات الكروي، ولم يحصل ذلك - في المشرق - إلا في أواسط القرن التاسع الميلادي، عندما قدم **الخوارزمي** (كان حياً إلى حدود ٨٣٠م) صيغة خاصة[٢٠]. ربما بعد مرور زمن طويل على ذلك... لأن المساجد المرجعية كانت موجودة قبل ذلك. ليس فقط في المدينة؛ بل أيضاً في القدس (المسجد الأقصى ومسجد الرقة)، ومسجد الفسطاط (القاهرة القديمة حالياً) ومسجد القيروان، ومسجد قرطبة...

على الرغم من كل شيء، أو ربما لهذا السبب بالضبط، استمر علماء الفلك في تقديم حلول تقريبية، من بينها -على سبيل المثال- تلك التي قدمها **البتاني** (ت. ٩٢٩م). ومع ذلك، ثمة عنصر أساسي ظل مستمراً، سواء تعلق الأمر بالطرق الدقيقة أو التقريبية، وهو أنه لا يمكن عمل أي شيء إذا لم تكن الإحداثيات الجغرافية جديرة بالثقة. صحيح أنه في الوقت الذي أصبحت فيه خطوط العرض مثبتة بشكل دقيق، ظلت خطوط الطول لمدة طويلة مشكلة مؤرقة. ولأن العلماء أدركوا أن خطوط الطول لم تكن محددة بدقة، فإن بعضهم (**كابن البناء المراكشي**) قد فضلوا أن يتبنوا مباشرة الاتجاه المتفق عليه (أي ٤٥ درجة جنوب- شرق).

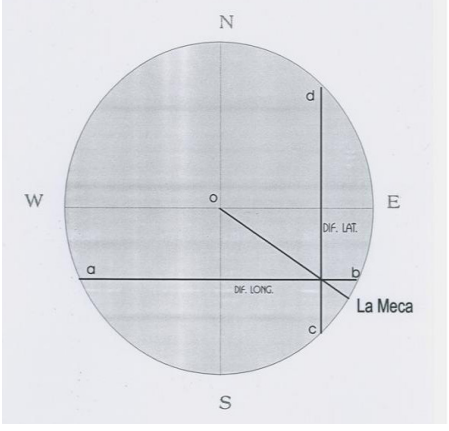

الشكل ١: الحلّ التقريبي الذي قدّمه البتاني

تغيرت قيمة خطوط الطول كما تغير خط الزوال الأصلي. وقد لاحظ المؤلفون العرب أن حجم البحر الأبيض المتوسط كان أكبر بكثير

(١٨) Corán XVI, 16.{ النحل، ١٦ }.

(١٩) Corán VI, 97.{ الأنعام، ٩٧ }.

(20) D.A. King, "Kibla" II, Encyclopédie de l'Islam (Nouvelle Édition) , V, pp. 85-91

من البيانات الواردة عند بطليموس، وهذا ما حفزهم على أن يتخذوا جزر الكناري كخط الزوال الأصلي للمدن الشرقية، بينما تم قياس المدن الغربية انطلاقاً من ساحل المحيط الأطلسي، وبذلك "قلصوا" من حجم البحر[٢١].

من جهة أخرى، فإن الكتب الخاصة بصناعة واستعمال بعض الآلات كالأسطرلاب والربع المُجيّب عادة ما نجدها تتضمن معلومات عن القبلة، رغم أنه يتم الاقتصار عادة على الجهة المناسبة انطلاقاً من قبلة محددة سلفاً.

٢,٥. الفلك الشعبي

بهذه الطريقة -المتناقضة في مبتدئها- فإن إحدى العقبات التي تحول دون استخدام الطرق الفلكية لم تأت من طبقة الفقهاء، بل من علماء الفلك أنفسهم. فهم لا يثقون في نتائج الطرق المطبقة على بيانات الثقة فيها ضعيفة، وكما رأينا سابقاً يتبنون مواقف جد متطرفة كموقف **ابن البناء**. هذا الرأي، بطبيعة الحال، لم يكن عاماً، لذلك نجد أن علماء الفلك قد خصصوا أيضاً فصولاً لتعيين القبلة في رسائل علم الميقات.

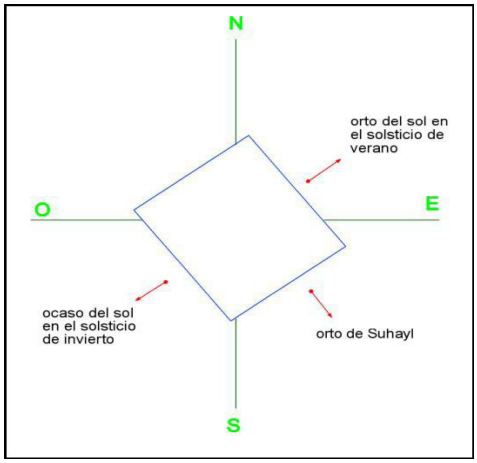

الشكل ٢: المسير الفلكي للكعبة

إن الطرق التي كانت كثيرة الانتشار طرق مرتبطة بعلم الفلك الشعبي، لسهولة تطبيقها. بهذا الشكل كان على المؤمن أن يتوجه -على سبيل المثال- نحو شروق أو غروب نجم محدد سلفاً. النجم الأكثر أهمية بطبيعة الحال هو نجم الشمس واتخاذ الاعتداليين والانقلابين نقطةً مرجعية. كما كان بالإمكان اللجوء إلى نجوم أخرى معبرة كقلب العقرب، وسهيل، والنسر الطائر، والشعرى العبور، ورجل الجوزاء...، واحدة من بين الطرق التي لاقت نجاحاً كبيراً كانت هي اعتبار نجم الجدي {النجم القطبي} كمرجع. في هذه الحالة يجب على جسد المصلي أن يكون في وضع محدد مع إشارات من قبيل "اجعل القطب على كتفك"، "وفيما لقي بصرك على الأيمن"، وهكذا.

في الوصف الذي يقدمه **المصمودي** للقطب في المصدر الذي يعتمده **لابن عاصم**

(21) M. Comes, "The «Meridian of Water» in the Tables of Geographical Coordinates of al-Andalus and North Africa", Journal for the History of Arabic Science 10 (1994), pp. 42-51 (reimpresión en The Formation of al-Andalus. Part 2: Language, Religion, Culture and Sciences, M. Fierro & J. Samsó, eds., Aldershot, 1998, pp. 381-391).

{ الثقفي}، يقول إنه "نجم مخفي في وسط السمكة التي تدور عليه، والسمكة هي بنات نعش الصغرى، والكبرى تدور على الصغرى ورأس السمكة أحد الفرقدين وذنبها الجدي".

يأتي **التاجوري** ببعض المؤشرات الفلكية، وهي في غاية البساطة على ما يبدو. يشرح -على سبيل المثال- كيفية تحديد الجهات الأربع، بناء عليها يقسم العالم إلى أربعة قطاعات: آلتين من الربع المجيب في الشرق واثنتان في الغرب. بالنسبة لهذا الفقيه؛ الجهة عبارة عن زاوية ٩٠ درجة، والسمت يوجد في الوسط.

ثمة جانب مهم يتمثل في أن **التاجوري** يشير إلى أن الصحابة والتابعين كانوا يستعملون علم الفلك الما قبل- إسلامي -وليس الرياضيات- لتحديد الجهات. إن نتائجهم الجيدة ترتبت عن المعرفة التي كانت لديهم بالنجوم، ولهذا اعتبرهم بمثابة المرجع الأمثل في تحديد الجهة.

٦. الجغرافيا

لم تكن عادة توجيه المباني إلى النجوم غريبة على التقاليد العربية؛ فالكعبة نفسها قد بُنيت بطريقة دقيقة جداً للنجاح في نصب جهتها بطريقة فلكية.

كما هو الشأن في حالة الكعبة، يمكن الاعتماد على موارد أخرى كالرياح، ومنازل القمر، وكذلك الأبراج، لكنها لم تستعمل إلا بقدر يسير.

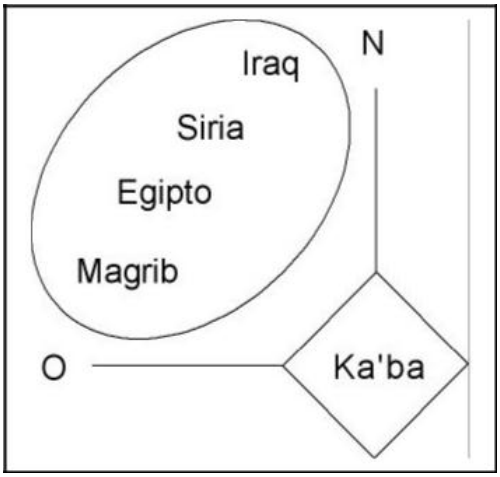

الشكل ٣: خطاطة لمقاطعات القبلة.

١,٦. خرائط القبلة

نشأت "خرائط القبلة" في إطار ما يسمى بـ"الجغرافيا المقدسة" انطلاقاً من الحاجة إلى استقبال الكعبة، وانطلاقاً من كون أن البنيان نفسه يعتبر كنقطة إحداثية. هذا النوع من الخرائط يضع الكعبة في المركز (محدداً إياها كمفهوم لمركزية الأرض والعالم) ويقسم المناطق المأهولة للكوكب الأرضي إلى قطاعات مختلفة (٤،٨ الخ.). هذه القطاعات تمثل جزءاً معيناً من المبنى الذي -من المفروض- أن يكون هو نفسه الذي يستقبله الحجاج وهم في مكة. العديد من هذه المهام كانت اعتباطية، بعيداً عن بيان أي مصلحة في أن تكون مرتبطة بالجغرافيا الرياضية، أي بدون أي نيّة في إنجاز خريطة ملموسة للعالم. هكذا يمكن ملاحظة كيف أن العالم مقسم -بناء على رؤية دينية وسياسية- إلى أقاليم في منتصف الطريق بين الخرائط المناخية اليونانية kiśwxrg

الفارسية. يبدو أن الخريطة الأولى هي خريطة **الفازاري** (القرن الثامن الميلادي)، لكنها تحولت -شيئاً فشيئاً- إلى نوع قائم بذاته والذي -في ضوء النتائج- قد يتحول إلى جزء من تاريخ الفن.

يمكن أن نذكر خريطة **علي بن أحمد الصفاقصي** (المؤرخة بتاريخ ١٥٥١م)، من عائلة تونسية متخصصة في إنجاز الخرائط والتي نعرف ثمانية أجيال منها. نجد في أعماله خليطاً مثيراً بين تأثير الجغرافي الإدريسي (ت. ١٢٥١م) والرسوم الخرائطية الميورقية { نسبة إلى ميورقا - ميوركا}.

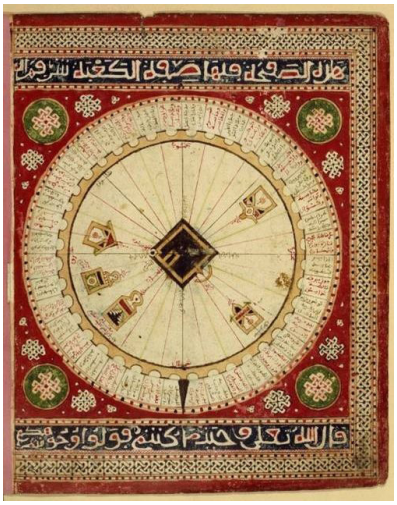

الشكل ٤: إعادة تركيب لخريطة الصفاقصي.

٧. الأركيولوجيا

بُنيت المساجد الأولى المساجد الأولى، وهذا أمر مفهوم، في البلاد المشرقية. لقد كانت لمساجد المدينة والقدس، وبعد ذلك بقليل، مساجد الفسطاط، حمولة رمزية كبرى بحيث كانت نموذجاً يُحتذى لقرون من الزمن. لكنه، في بعض الأحيان، لم يكن هناك نقل أمين للمؤشرات والعلامات التي كانت مستعملة في نصب جهتها. بهذه الطريقة تحول مؤشر صحيح (مراقبة موقع نهاية ذيل العقرب {شولة} في لحظة نجم طلوع قلب العقرب) إلى مؤشر غير صحيح (مراقبة مطلع نجم قلب العقرب).

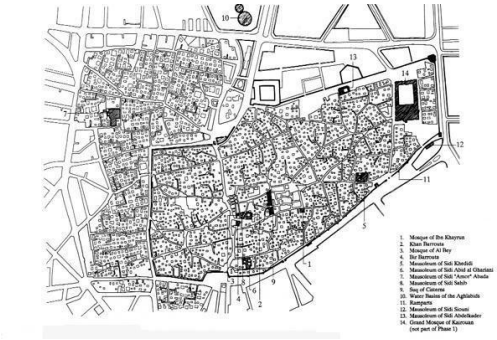

الشكل ٥: تصميم جزئي للقيروان مع المسجد الجامع.

في أحايين أخرى، لا يبدو أن هناك أي معنى لتقليد مسجد في منطقة جغرافية يكون فيها هذا التقليد مفتقداً لأي معنى. واحدة من أكثر هذه الحالات شهرة هي منطقة الأندلس حيث كان يقال إن الشاميين الذين حلوا بشبه الجزيرة الأيبيرية استمروا في نصب المساجد إلى الجنوب - الأمر الذي كان صحيحاً في بلدهم الأصلي -، بدون الأخذ بعين الاعتبار أنهم قد انتقلوا من مكان إلى مكان.

أخيراً: لا بد من الأخذ بعين الاعتبار أن المجال الجغرافي قد يتدخل كعامل في تحديد جهة

المبنى. كما أن شكل تخطيط الأزقة والممرات، التي بُني بها المسجد، يمكن أن يكون له تأثير ما، بالرغم من أنه ليس عاملاً حاسماً، ذلك لأن النسيج الحضري غالباً ما يتم التحكم فيه حتى لا تتم التضحية بالقبلة، إذ إنه من المؤكد أنها ليست دائماً "على الصواب".

١,٧. قبلة المغرب والأندلس[٢٢]

٢,٧. المغرب الأقصى

بالرغم من العدد الكبير من مؤيديه على المستوى النظري، فإن التيار الذي كان يدافع عن الاتجاه الشرقي للقبلة في بلاد المغارب لم يلق نجاحاً على المستوى الفعلي والعملي. ويبدو -على الأقل في ما له صلة بتعيين قبلة أماكن العبادة- أن فقهاء المالكية لم يكن لهم الوزن الذي قد نعتقده.

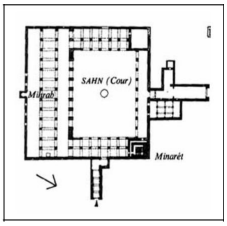

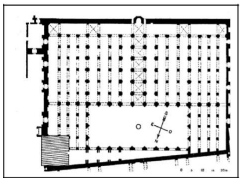

الشكلان ٦ و٧: ٦ - تصميم مسجد علي بن يوسف؛ ٧ - تصميم مسجد الكتبية.

لقد أدى تفسير الحديث النبوي "ما بين المشرق والمغرب قبلة" إلى ظهور موقفين: الموقف الأول كان يدافع عن التقليد (بالمعنى الذي يفيد التقليد الأعمى للسلف)، وبمقتضى هذا الموقف: فإن الجهة الغربية للقبلة كان كونياً؛ في الجهة الأخرى: كان هناك المؤيدون للاجتهاد (بالمعنى الذي يفيد الاجتهاد في تنزيل القانون القرآني وليس فقط بذل المجهول في التأويل[٢٣]). بالرغم من ذلك، لا بد من توضيح مفاده أن معظم المساجد في بلاد المغارب لم تكن تُنصب إلى الجنوب (١٨٠ درجة)، بل باتجاه ١٥٠ درجة، أي إلى مطلع سهيل. كان هذه الجهة هي المفضلة في العهد الموحدي، ويمكن اعتبار ذلك عنصراً من العناصر المفسرة لهدم مسجد الكُتبيّة وإعادة بنائه لاحقاً.[٢٤] في المقابل، نجد أن المصادر تصمت صمتاً مريباً فيما يخص المساجد الموحدية؛ لا نجد في هذه المصادر نقداً لهذه المساجد؛ لكن لا نجد فيها إلا الثناء. ومع ذلك، فإن مسألة الوثوق فيها من عدمه لم تكن موضوعاً للنقاش على امتداد عدة قرون.

أخيراً، يلزمنا الحديث أكثر ليس عن أنصار الوجهة الجنوبية؛ بل عن الجهود التي بذلت من أجل تبرير الاختلاف حول تعيين جهة المساجد التي بنيت في مختلف المراحل التاريخية. ليس من المستغرب إذن أن يكون **الفاسي**، في القرن الثامن عشر الميلادي، أكبر ممثل لرأي هذا التيار. إن فكرة أن الاختلاف لم

(٢٢) انظر -من أجل المقارنة بين المستوى النظري والواقع الأثري-: أعمال كل من ألفنسو خيمنيس ("القبلة المنحرفة"، دفاتر مدينة الزهراء، العدد ٣، (١٩٩١)، ص.ص. ١٨٩-٢٠٩)، ميكائيل بونين، (القبلة وبنية المدينة: تحليل أولي للمدن الإسلامية بالمغرب"، مجلة مقرنس، العدد ٧ (١٩٩٠)، ص.ص. ٥٠-٧٢).

(٢٣) أُغلقت أبواب الاجتهاد في حوالي القرن العاشر.

(٢٤) تؤكد الحوليات التاريخية أنه تم بناؤه عام ١١٤٧م وأُعيد بناؤه عام ١١٦٢م لتصويب اتجاهه، لكن الدراسات الأثرية تظهر أن جهة البناية الأولى للمسجد كانت ١٥٤ درجة، بينما البناية الثانية لنفس المسجد كانت موجهة نحو ١٥٩ درجة. على أي حال يبدو الأمر مريباً ومثيراً للشك أن يتم هدم بناية بكاملها من أجل تشييد آخر موجه وجهة مماثلة.

يكن من شأنه إحداث شرخ داخل الجماعة، فكرة تكرر ذكرها فعلاً في معظم الرسائل.

٣,٧. الأندلس

في حالة الأندلس: يمكننا الحديث عن أربعة اتجاهات. في المقام الأول نجد أن الاتجاه الأكثر استعمالاً كان هو "اتجاه سهيل" الذي يجب إدراجه ضمن المساجد التي اتخذت المسجد الجامع لقرطبة كنموذج. أي بعبارة أخرى: كعاصمة. ثانياً: نجد المجموعة الأكثر عدداً هي تلك التي تستخدم اتجاه الجنوب. وهناك -ثالثاً-: قبلة الفلكيين، وهي قبلة المشارق، التي يُتوصّل إليها عبر رصد مطلع الشمس في الاعتدال. أخيراً، هناك قبلة التوافق: قبلة اتجاه جنوب- شرق الذي يستعمل -كعلامة- مطلع الشمس في الانقلاب الشتوي.

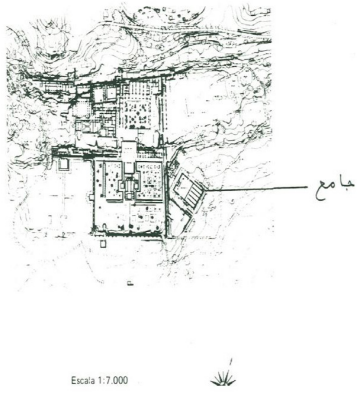

الشكل ٨: تصميم مجمّع مدينة الزهراء

يبدو أن جهة جامع قرطبة نُصبت على صورة الكعبة، حيث إن المبنى الأندلسي موجه إلى ١٥٢ درجة، بينما اتجاه مكة موجه إلى ١٥٠ درجة. ومع ذلك فإن المصادر لا تبين العملية التي يتم اتباعها، بحيث إنه قد يكون الاتجاه محدداً تبعاً للتضاريس أو لمجرى النهر...

هذه الجهة نفسه، كما تمت ملاحظة ذلك، تتكرر في عدد ليس بالهين من المساجد الأندلسية؛ لكن نصب الجهة كان في بعض المناسبات مرتبطاً بالطراز المعماري، وهو ما ينتج عنه إمكانية وجود نسخ مطابقة لأصل هذا المسجد. ينطبق هذا على باب مردوم (القرن العاشر) بطليطلة، كما ينطبق على عدد معتبر من مساجد الموحدين ببلاد المغارب.

يمكن اعتبار حالة مدينة الزهراء كحالة للقبلة التي تتعالى على المعايير الجمالية؛ إن ملاحظة بسيطة لتصميم الجانب الشرقي لهذا المجمّع المعماري، تبرز تلك الإرادة في تنصيب القبلة بدقة، حتى ولو كان ذلك على حساب جمالية المجمّع. إن موقف السلطة في هذه الحالة هو المحافظة على الأشكال أثناء عملية توسيع جامع قرطبة، لكن مع ضرورة بيان الهدف -بشكل بارز- من تشييد مبنى تم تنصيب جهته بدقة. ومن عجيب المفارقات أن ما حدث في ذلك الوقت -من أجل أن تكون القبلة على صواب- لم يحصل في الواقع، بسبب المشكلة التي سبق لنا ذكرها، والمتعلقة بغياب إحداثيات جغرافية دقيقة.

ثمة حالة مشابهة "للمعايير المزدوجة" هي حالة غرناطة، حيث اختار نفس السلطان، **يوسف** (١٣٣٣م-١٣٥٤م)، اتباع الاتجاه التقليدي فيما يخص تنصيب جهة المدرسة اليوسفية، الواقعة أمام

المسجد الجامع (القرن الحادي عشر الميلادي) - والتي تمثل رمزاً اجتماعياً-، بينما تم الحرص على النجاح في الاحتفاظ بخدمات عالم فلكي (من المرجح أنه **ابن الرّقّام**) لتشييد منبره الخاص، والذي يعد واحداً من المنابر الموجهة على الصواب.

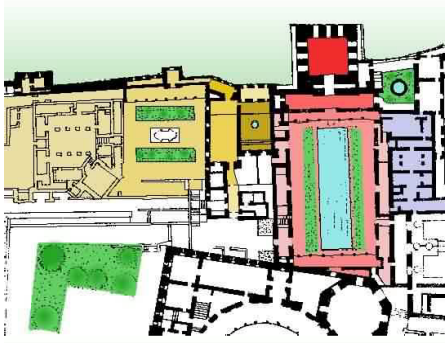

الشكل ٩: تصميم مفصّل لقصر الحمراء.

لا يبدو أن للمجمع المعماري لغواردمار -في المقابل- الكثير من الأهمية في تحديد جهة على درجة كبيرة من الدقة. إنه مجرد جهة بالمعنى العام والتي هي -في هذه الحالة- الجهة الجنوبية.

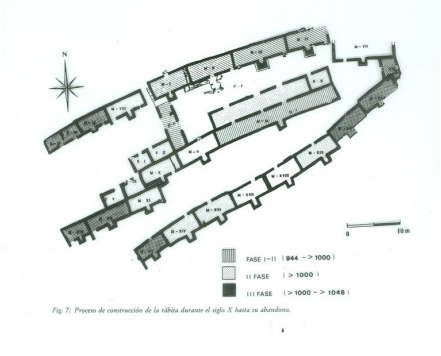

Fig. 7: Proceso de construcción de la rábita durante el siglo X hasta su abandono.

الشكل ١٠: تصميم المجمّع المعماري لرابطة غواردامار.

٨- الإسطوغرافيا

كل هذا يقودنا إلى مسألة التوظيف السياسي للقبلة. إن الرسول محمد (ﷺ) قد سبق له أن غير بالفعل اتجاه القبلة الأصلي من القدس إلى مكة كتعبير عن نية واضحة ترمز إلى القطيعة مع اليهود.

هكذا نجد أن الموحدين بدورهم قد غيّرو الجهة للتعبير عن وصول سلالة حاكمة جديدة لسدة الحكم لا شيء يربطها بسلالة المرابطين. بل كان هناك حديث حتى عن رقابة تمنع الحديث عن القبلة. وهذا ما تمثله حالة **ابن القدّام** الذي -زمن الموحدين- صلى في اتجاه المحراب الذي أقامه المرابطون "عندما لم يخش من يشنع عليه". في بعض الأحيان، تبدو حالة الموحدين نموذجية؛ بحيث إن تنصيب قبلات المساجد كان أمراً مرتبطاً بالسلطة السياسية أكثر من الرغبة الحقيقية في استقبال الكعبة. وهذا ما يجعل من الممكن الحديث عن اتجاهات سلالية.

٩ - القبلة حالياً

بناء على كل ما تقدم، يبدو من الواضح والجلي أن القبلة ليست موضوعاً محصوراً في الماضي؛ بل موضوع مفعوله يسري في الحاضر. وذلك ما يمكن تبيّنه من خلال إجراء بحث على شبكة الانترنيت. فعندما نكتب كلمة " قبلة" في محرك بحث كغوغل مثلاً تظهر عدة صفحات خاصة بدين المسلمين الذين يعيشون

في مختلف بقاع العالم. كما تظهر أيضاً إعلانات تجارية أخرى ك"قبلة كولا" و "قبلة. كوم".

من جهة أخرى، فإن السؤال الذي يطرح نفسه حالياً هو كيف يمكن المحافظة على الجهة الصحيحة - أو تحديد الموقع حسب المصدر - مع تزايد عدد المؤمنين من الحجاج الذين يحجون إلى الكعبة كل عام.

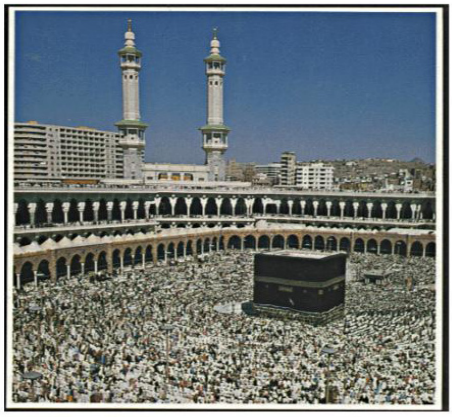

الشكل ١١: صورة حديثة للكعبة.

١٠ – خلاصات

يمكن أن نستخلص من هذه الرؤية البانورامية العامة عدة نتائج. النتيجة الأولى هي أن استعمال عبارة: "ليس على صواب"، عندما يتعلق الأمر بتنصيب قبلة المسجد، يجب أن يكون بالشكل المناسب، طالما أن استقبال عين القبلة لم يكن واجباً مطلقاً. من ناحية أخرى، لا تزال هناك، إلى حد الآن، مناطق ظل فيما له صلة بالمسئولين المباشرين الذين كانت لهم الكلمة الأخيرة في تنصيب جهة المباني عموماً. الراجح أن المهمة تلك كانت ملقاة على عاتق الفقهاء؛ لكن هناك ما يدل على أن كلمة هؤلاء الفقهاء لم تكن دائماً مسموعة. إن عملية التنصيب -في حقيقة الأمر- كانت نتيجة لمجموعة من العناصر التي لا حضور فيها لعلم الفلك إلا حضوراً ضعيفاً وباهتاً. هناك عينة أخرى محددة للعلاقة بين السياسة والدين في الفضاء الإسلامي الوسيط تتجلى في تنصيب قبلات بعض المساجد، مثل مساجد الموحدين أو المساجد التابعة لمجمع قصر الحمراء.

بالرغم من أن التنصيب الدقيق للقبلة تعترضه حدود وقيود قد تكون معمارية (إلى أي حد يمكن تشييد مباني بشكل دقيق للغاية)، أو هندسية (رياضية) (مرتبطة بضرورة التوصل إلى اكتشاف صيغ رياضية في مجال علم المثلثات الكروي، وكذلك التوصل إلى اكتشاف الإحداثيات الجغرافية الموثوق بها)، فإن القبلة كانت واحدة من العناصر المرتبطة بأحكام الشريعة، والتي كان لها الدور الهام في إعطاء دفعة مهمة لعلمي الرياضيات والفلك.

النص الأصلي للمقال:

MÒNICA RIUS, La alquibla: ¿ciencia religiosa o religión científica?, **'Ilu**. Revista de Ciencias de las Religiones Anejos, 2006, XVI, pp. 111-93.

تنويه: كل ما يرد بين {...}، سواء في المتن أو في الهوامش هو من وضع المترجم.